الإمام الحسين عليه السلام ونهضة الفكر الأخلاقيّ

علي الشعيبي[1]

خلاصة البحث

إنّ الأخلاق هي الركن الأساس التي كان الله سبحانه وتعالى يرسل الأنبياء من أجلها؛ لتكون محورًا تربويًّا في بناء الإنسان، ولقد جعل رسول الله صلى الله عليه وآله الأخلاق أساس الدين بقوله: «الدين حُسن الخلق»، بل ذهب صلى الله عليه وآله أبعد من ذلك، فقد جعل مكارم الأخلاق الغاية من بعثته الشريفة: «إنّما بعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق»، والنهضة الحسينيّة هي في الواقع امتدادٌ لفكر جدّه الشريف ومنهجه الأخلاقيّ، والتي أصبحت دستورًا أخلاقيًّا يقتدي به الأحرار في أرجاء العالم، يشير هذا المقال إلى ممارسة السياسة الناعمة التي بدأها معاوية ضدّ المبادئ الأخلاقيّة وأصحابها، الذين نزلت فيهم آية التطهير وهم رموز الأخلاق، وقد اتّخذ النفاق مطيّةً لنيل مطامعه، ثمّ ارتقى هذا المعيار الأخلاقيّ المتمثّل في سلب الناس إرادتَهم وحرّيّتَهم وشراء ذممهم؛ ليبلغ ذروته في عصر ابنه يزيد الذي تمثّل أوّلًا بقتل الإمام الحسين، وأخيرًا بهدم الكعبة، ولولا ثورة الإمام الحسين عليه السلام لكان الإسلام الذي نزل على محمد صلى الله عليه وآله لانتهى نهائيًّا أو لتبدّلت معالمه نهائيًّا.

يرمي البحث، من خلال عرض الأحاديث والأدلّة التاريخيّة عن انحراف المجتمع -

١. جامعة دمشق، باحث في العلوم والدراسات الإسلامية، دمشق، سوريا.

يومئذٍ - من القيم الأخلاقيّة والانحطاط الأخلاقيّ على مستوى الحاكم والرعيّة، إلى شرح الدور البنّاء للإمام الحسين عليه السلام ونهضته الفكريّة الأخلاقيّة في إصلاح الأمّة الإسلاميّة وإعادتها إلى القيم الأخلاقيّة التي كانت عليها في عهد جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله.

المفردات الرئيسة: الإمام الحسين عليه السلام، عاشوراء، نهضة الفكر الأخلاقيّ، المبادئ الإسلاميّة، القيم.

مقدّمة

لا شكّ ولا ريب أنَّ النهضة الحسينيّة هي امتداد لفكر رسول الله صلى الله عليه وآله ومنهجه الأخلاقي؛ حيث تعتبر الملحمة الحسينيّة التي سُطِّرت بأنامل أخلاقيّة في كربلاء المقدّسة هي منهج مكمّل لأخلاق بيت النبوّة، امتدّت أبعد من ذلك هي النهضة الأخلاقيّة؛ لتشمل كافّة مفاصل الحياة التربويّة والاجتماعيّة والدينيّة والأخلاقيّة والاقتصاديّة، وأصبحت دستورًا أخلاقيًّا يقتدي به الأحرار في العالم.

وكيف لا وقد نشأ الحسين عليه السلام نشأته المباركة في بيت النبوّة ومنزل الوحي، وورث الصدق والسخاء والشجاعة والكرامة والعزّة والرحمة والسماحة من هؤلاء الكرام عليهم السلام، فكان الإمام الحسين عليه السلام مثالًا لكلِّ خُلُقٍ فاضل، ورمزًا لكلِّ صفةٍ كريمةٍ، وقد بلغ من إبائه وشهامته عليه السلام أنّه لـمّا بايع الناس معاوية في العام الذي سمّوه عام الجماعة، وبايعه الحسن عليه السلام على شروط شرحها التاريخ لم يفِ له معاوية ولا بواحدة منها، وطلب معاوية البيعة من الحسين، فامتنع ولم يبايع، واكتفى منه معاوية بالسكوت والسكون، لكن لمّا آل الأمر لابنه يزيد، المتجاهر بالفسق، ترفّع الحسين عليه السلام عن بيعته، فلقد كان يزيد أكبر خطرٍ على الإسلام وقيمه الأخلاقيّة وما كانت حركة الحسين عليه السلام إلّا لمحض الدعوة الإصلاحيّة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد هاجر إلى مكّة المكرمة وهي مهبط الوحي ومبعث الرسالة، وفيها موسم الحجّ العام، ويجتمع فيه كلّ عام من البلاد الإسلاميّة جمع غفير، فقصدها ليبثّ هناك دعوته وينشر رسالته، فيحملها عنه كلّ مسلم، ويبلغ بها الجهات النائية؛ لينقذ الإسلام من الهوَّة التي أنزلها به الأُمويون وأتباعهم؛ فإنّ معاوية ابتدع في الدين وشقّ عصا المسلمين، ووضع الأحاديث الكاذبة، وجعل أمر الأُمّة الإسلاميّة بيد رجال ذوي مطامع قادهم إلى الشهوات لا إلى الدين، لم تثنهم عن ذلك خشية من الله.

أفيزيد يتقلّد زمام الخلافة؟! ما أعظمها من محنة! ليقف أبو الأحرار في وجه جيش

الشرك الذي يريد القضاء على الدين الإسلاميّ، ويطلب يومًا بيوم بدر، وفتحًا بفتح مكّة، وهيهات صرخ أبو عبد الله عليه السلام صرخة الحقّ، ونشر راية الإخلاص، ووقف محاميًا عن دين جدِّه، وإحياء القيم الأخلاقيّة ليس إلّا.

مفهوم الأخلاق لغةً واصطلاحًا

وفي اللغة، هي: «الدين والطبع والسجيّة».[١] وفي الاصطلاح: «عبارة عن هيئةٍ راسخةٍ في النفس، تصدر عنها الأفعال بسهولةٍ ويسر، من غير حاجة إلى فكر ورويّة».[٢] وفي الكتاب الثاني من ربع المهلكات جعل تفويض تحسين الأخلاق إلى اجتهاد العبد... وأنّ الله سهّل على عباده تهذيب الأخلاق بتوفيقه...[٣]

وتمثّل الأخلاق فيما يفعله ويقوله الإنسان صورة الباطن الإنسانيّ الذي يظهر على شاكلة سلوك، وفعل وقول منطوق؛ لأنّ غير المنطوق لا يحاسب عليه، وكذلك نيّة الفعل أو العمل أو الصنعة، أو التعلّم؛ فإنّ الإنسان لا يحاسب عليه إلّا إذا صدر وصار ملموسًا خيرًا أو شرًّا.

وتنقسم الأخلاق إلى أخلاق حسنة وتعلوها مكارم الأخلاق، وإلى أخلاق سيّئة وتعلوها أراذل الأخلاق، وإنّما بعث رسول الله صلى الله عليه وآله؛ ليتمّم مكارم الأخلاق بترسيخ روحانيّات منتقاة تولّد ملكات مرضي عنها دعا إليها القرآن ومثلها الرسول تصقل النفوس فترقى بها إلى الإيمان ليصدر عنها سلوك عظيم، نافع، خير ينسجم تمامًا بما حمله القرآن ودعا إليه فيكون ذلك الأخلاقي قرآنًا متحرّكًا على الأرض وكان القرآن قد أفرد للرسول صفة العظمة في كلّ شيء ومنها الأخلاق، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.[٤]

١. ابن منظور: ١٠/ ٨٥.
٢. الغزالي، ربع المهلكات: ٣.
٣. المصدر نفسه.
٤. القلم: ٣.

كما أكّد الرسول ووحيه على أهمّيّة حسن الخلق لدرجة جعلته مفتاحًا لدخول الجنة، فقال: «تخلّقوا بأخلاق الله، إنّ أكثر الناس يدخلون الجنة بتقوى الله وحسن الخلق».[١] وعلى هذا، فالدين بمختصره، هو حسن الخلق، كما في قوله: «إنّ أحسن الحسب الخلق الحسن».[٢]

وعلى هذا كان الوصي عليه السلام، فكان يقول: «حسن الخلق رأس كلّ برّ».[٣] وكذا الأمر بالنسبة للأخلاق السيّئة والرذيلة، فقد نهى عنها رسول الله صلى الله عليه وآله، ووصيّه ومدرسة آل البيت عليهم السلام لما لها من أضرار روحيّة ونفسيّة وسلوكيّات سلبيّة منهي عنها، قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «مَنْ ساء خلقه عذب نفسه»،[٤] وفي هذا الإطار قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إنّ سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخلّ العسل».[٥] وكان الإمام علي عليه السلام قد قال مجموعة كلمات قصار بلغت أربعًا وعشرين كلمة قال في إحداها: «كلّ داء يداوى إلّا سوء الخلق».[٦]

وهكذا نرى أنّ الأخلاق هي المسؤولة عن السلوك والفعل والقول خيرًا فخير وشرًّا فشرّ، وأنّ للأخلاق أهمّيّة عظمى في بناء الإنسان الجيد المعطاء، وأنّها الركن الأساس التي كان الله سبحانه وتعالى يرسل الأنبياء والرسل من أجلها لتكون معلمًا ومصنعًا تربويًّا مهمًّا في بناء الإنسان.

سياسة النفاق والحكم الأموي

إنّ أوّل مظهر من مظاهر هذه السياسة بدأ على يد معاوية بن أبي سفيان؛ حيث قال عند زيارته المدينة المنورة لأوّل مرّة بعد أن استقر له الملك:

١. ابن أبي الحديد، الجزء الثالث.
٢. مسلم: ٧/٨.
٣. الليثي الواسطي: ٢٧.
٤. الحراني: ١٣٧.
٥. الكليني: ٣٢١/٢.
٦. المصدر نفسه: ٣٧٥.

إنّ الناس أعطونا سلطاننا، فأظهرنا لهم حلمًا تحت الغضب وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد، فبعناهم هذا بهذا، وباعونا هذا بهذا، فإن أعطيناهم غير ما اشتروا منا شحّوا علينا بحقّنا، وغمطناهم بحقهم، ومع كلّ إنسان منهم شيعته، فإن نكثناهم نكثوا بنا ثمّ لا ندري أتكون لنا الدائرة أم علينا.[1]

يشير هذا النصّ إلى ممارسة السياسة الناعمة التي بدأها معاوية والقائمة على النفاق وهو معياره الأخلاقيّ هنا، تولّد عنه معيار سلب الناس والأفراد إرادتهم وحرّيّتهم وشراء ذممهم، دون احترام لكرامة الناس وخيارهم بانحطاط أخلاقيّ عدا السياسة ليصل إلى المجتمع والدين ما دامت الدولة تنافق الناس، والناس ينافقون الدولة، وارتقى هذا النفاق ليبلغ ذروته في عصر يزيد الذي تمثّل أوّله بقتل الإمام الحسين عليه السلام، وآخره بهدم الكعبة.

وقد أسّس معاوية، إلى جانب سياسة النفاق، سياسة الاحتواء وتجريد الناس من حقّهم المادّي والفكريّ والدينيّ الذي تبنّاه من خلال ما أرسله من الكتب إلى كلّ أنحاء المملكة ببراءة الذمّة من كلّ من يذكر آل البيت عليهم السلام بخير وفي مقدمتهم الإمام علي عليه السلام، فأرعب الناس، واستخدم الدهاء من خلال القوّة الناعمة، والتلاعب بمشاعر الناس، وإغرائهم، وخلف هذا الإرث لولده يزيد، ولما آلت إليه الخلافة، استخدم سرجون بن منصور مستشارًا له، وهو من أشار على يزيد لتولية عبيد الله بن زياد على الكوفة، وقد ذكر ذلك ابن الأثير.[2]

ومن مظاهر سياسة معاوية هذه مصادرته بيت مال المسلمين، وجعله بيت مال له يتصرّف به كما يشاء، وهو من أسّس هذا الفساد المالي الذي انتقل إلى الخلافة العباسيّة بهذا الشكل، تشكّلت على إثر ذلك طبقة من الملوك من الأمراء والحكّام، والتسبب المالي إلى انتشار ظاهرة اللهو والفسق، وازدهار أسواق الرقيق لا سيّما من الجواري والغلمان.

وما كان هذا ليكون لولا الفساد المالي، وكان معاوية متلافًا للمال، لا سيّما في باب

١. ابن كثير: ١٣٢/٨.
٢. ابن الأثير: ٢٦٨/٣.

شراء الذمم ومحاربة آل البيت والعمل على نشر كلّ مظاهر اللهو والعبث؛ ليخرج الناس من جدّيّة الدين في التعامل مع الحياة طريقًا إلى الآخرة، إلى عبث الحياة ولهوها كأقرب أسلوب في الحرب الناعمة على الإسلام.

وإذا أردنا الوقوف على شيء من أخلاق معاوية، وجب علينا الوقوف على ما صرّح به ابن أبي الحديد في "*شرح نهج البلاغة*"، قائلًا:

> **كان معاوية أيام عثمان شديد التهتك موسومًا بكل قبيح، وكان أيّام عمر يستر نفسه قليلًا؛ خوفًا منه، إلّا أنّه كان يلبس الحرير والديباج، ويشرب في آنية الذهب والفضة، ويركب البغلات ذوات السروج المحلاة بها، وعليها جلال الديباج والوشي، وكان حينئذ شابًا، وعنده نزق الصبا، وأثر الشبيبة وسكر السلطان والإمرة، ونقل الناس عنه في كتب السيرة أنّه كان يشرب الخمر في أيّام عثمان في الشام، ولا خلاف أنّه سمع الغناء، وطرب عليه، ووصل عليه أيضًا، وتأثّر به ولده يزيد فكان مدمنًا خليعًا مستهترًا، وتأثّر بهذا السلوك جميع خلفاء بني أميّة، يقول الجاحظ: وكان يزيد لا يمسي إلّا سكرانًا ولا يصبح إلّا مخمورًا، وكان عبد الملك بن مروان يسكر في كل شهر مرّة.**
>
> **وإنّما كانت حرب معاوية الناعمة على الأمّة وتمسكها بدينها عن طريق إشاعة الفساد، واللهو، والعبث في المجتمع الإسلامي المبكر الذي كانت فيه ثياب النبي لم تبل، وآنيته لم تكسر، وعبق ريحه صلى الله عليه وآله يملأ شوارع المدينة، كلّ ذلك ليضرب الجسد الإسلامي ويتخلص منه.**[1]

وكلمةٌ قالها معاوية لما استتب له الأمر تلخّص موقفه واستخفافه بالمقدّسات الإسلاميّة واحتقارها، فإنّه لما تغلب قيل له: لو سكنتَ المدينة، فهي دار الهجرة، وبها قبر الرسول صلى الله عليه وآله، فقال: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.[2] إنّه لا يريد أن يرتبط بدار الهجرة وما في جنباتها من قيم نبويّة ما زالت رائحتها قويّة؛ لأنّه يريد أن يصل بالناس إلى مرحلة اللا أخلاق، وينتهي بهم إلى إهمال الدين، وانهيار الجسد الإسلاميّ ضمن إشكاليّة العلاقة بين الدين والسياسة، فجعل من السياسة نقيضًا للدين من خلال ممارساته في

١. شريف القرشي: ٢/١٤٤ ـ ١٥٣.
٢. المغربي: ١/٢٢٩.

الحجاز، والعراق، والشام، وهذا أعظم فكرٍ بل إرثٌ فكريّ خلفه لابنه يزيد الذي زاد عليه بقلبه الحرب الناعمة إلى حرب دمويّة خشنة، وآمن إيمان أبيه أنّه لا أخلاق في حكم الناس، وأنّ ما جاء به الرسولﷺ يجب أن ينزع لكن بأسلوبٍ ناعمٍ يعتمد التشويه والتغيير وشراء الذمم؛ ليصل إلى اللحظة المطلوبة عنده تلك التي تتمثّل بنزع الأخلاق وزرع الفتن، وكأنّ الله قد تقصد أن يقول نبيّه:

تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأيُّ قلبٍ أشربها، نكتت فيه نكتة سوداء، فيصير أسودًا مربادًّا كالكوز مُجخفًا، لا يعرف معروفًا، ولا ينكر إلّا ما أشرب من هواه، وأيّ قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتّى يصير القلب أبيض مثل الصفا، لا تضرّه فتنة ما دامت السماوات والأرض.[١]

لا شكّ أنّ المتتبّع لما كان يزرعه معاوية من فتنٍ بأسلوب ناعم، كما فعل كثير من الباحثين في العصور الأول، يدرك أنّه أمام رجل أخذ على نفسه عهدًا بمحو كل ما جاء به رسول اللهﷺ لولا أنّ الله تعهّد بحفظ دينه من خلال حفظه للقرآن الذي كان خلفًا للقرآن يتمثّله عمليًّا، فلم يبحث الحسينعليه السلام كثيرًا عن مسبّبات الخروج وهو يشاهد ويسمع، وتنقل إليه الأخبار بما فعله معاوية من محاربة ناعمة للإسلام بزرع الفتن الشتّى ورعايتها، وأدرك أنّه لا خلاص منها إلّا بالعودة بالناس إلى دين جدّه، وكانت العودة غريبة بأسلوبها ركب فيها طريق التضحية بدمٍ مسفوحٍ على مدار التاريخ كلّه؛ ليظلّ الحارس الوفي على دين الإسلام، ويظل الحسينعليه السلام نبراسًا لكلّ مناضلي الأرض الثائرين على الظالمين في الآفاق، وكانت عبارته الشهيرة:

إنّي لم أخرج أشرًا ولا بطرًا ولا مفسدًا ولا ظالمًا، إنّما خرجت لطلب النجاح والصلاح في أمّة جدي، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدّي محمّد، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن رد عليّ هذا أصبر حتّى يقضي الله بيني وبين القوم بالحقّ وهو خير الحاكمين.[٢]

١. صححه الألباني: ٢/١٤٤.

٢. المجلسي: ٢٤/٣٢٩.

فمعاوية كان يستخدم الحرب الناعمة للحصول على ما يريد، وكان الإمام عليّ عليه السلام يدرك هذا المخطّط الناعم الذي يسعى إليه معاوية؛ فكتب إليه ذات مرّة:

.. وقد أكثرت في قتلة عثمان، فادخل فيما دخل فيه المسلمون، ثم حاكم القوم إليّ أحملك وإيّاهم على كتاب الله، فأمّا تلك التي تريدها فخدعة الصبي عن اللبن، ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ قريش من دم عثمان، وأعلم أنّك من الطلقاء الذين لا تحلّ لهم الخلافة، ولا تعرض فيهم الشورى...[1]

فالإمام علي عليه السلام عارف وكاشف حيل الأطفال عند معاوية، وكان يريده أن يرتفع بعقله عن ذلك دون هواه ليصل إلى معرفة الحقيقة في دم عثمان، وهو يعلم أنّ معاوية يعلم لكنّه يريد أن يقيم عليه الحجّة، ويخرج من حربه الناعمة التي يسعى من ورائها إلى الخلافة مستخدمًا قميص عثمان لذلك.

بعد استشهاد الإمام علي عليه السلام وصلح معاوية مع الإمام الحسن عليه السلام خلت الساحة الفكريّة لمعاوية كما كلّ الساحات، لكن الساحة الفكريّة التي كان يستخدم فيها حربه الناعمة ليصل إلى ما يريده وهو أبعد من السلطة، سعيه الدائم في تشويه الإسلام ومحاولة القضاء عليه، ولا شكّ أنّه نجح في كثير مما رمى إليه. ولولا ثورة الإمام الحسين عليه السلام لكان الإسلام الذي نزل على محمّد صلى الله عليه وآله لانتهى نهائيًّا أو لتبدّلت معالمه نهائيًّا.

أخرج أحمد بن حنبل في "*مسنده*"، وغيره كذلك من رواة الحديث عن أنس بن مالك أنّه قال:

ما أعرف شيئًا ممّا عهدت مع رسول الله صلى الله عليه وآله اليوم، فقال أبو رافع: يا أبا حمزة، ولا الصلاة؟! فقال: أوليس قد علمت ما صنع الحجاج الصلاة؟

وأخرج البغوي في "*شرح السنّة*" والبوصيري في "*مختصر إتحاف السادة المتقين*" عن أنس رواية أخرى، قال:

ما أعرف فيكم اليوم شيئًا كنت أعهده على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله غير قولكم: لا إله

١. ابن أبي الحديد: ٣/٧٥.

إلّا الله، قال: فقلت يا أبا حمزة الصلاة؟! قال: قد صلّيت حين تغرب الشمس، أفكانت تلك صلاة رسول الله ﷺ ؟!

ولا شكّ أنّ لهذا الحديث دلالات كثيرة كلّها تصبّ في خانة ما بدّله معاوية في الإسلام، وظلّ هذا مثار خلاف بين المسلمين إلى الآن! ولولا أن حافظت مدرسة آل البيت عليهم السلام على صورة الإسلام توارثًا عن الأئمّة الذين أخذوها بدورهم عن الإمام علي عليه السلام عن رسول الله ﷺ لضاعت الصورة والهيئة الحقيقيّة لها ولغيرها من صحيح الدين.

كان معاوية يعمل المستحيل للوصول إلى ما يريد ولو بالغدر والفجر؛ ولذلك قال الإمام علي عليه السلام:

والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنّه يغدر ويفجر، ولولا كراهيّة الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن لكلّ غدرة فجرة، ولكلّ فجرة كفرة، ولكلّ غادرٍ لواءٌ يعرف به يوم القيامة.[1]

ولا شكّ أنّ معاوية هو أوّل من استخدم الحرب الناعمة في الإسلام لتحقيق ما كان يصبو إليه، وقد بدأها في وقتٍ مبكّر جدًّا إلى أن صار واليًا على معظم الشام في عهد الخليفة الثالث، فلمّا قتل الخليفة اتّخذ من قتله ذريعةً وابتدع فكرة الثأر كونه ابنَ عم له، متجاوزًا بذلك حقيقة ما جرى برفضه مبايعة الإمام علي عليه السلام دون أن يألم للمخالفة أو لتمزيق الأمّة، وهي في بداية تكوينها. واستطاع بعد استشهاد الإمام علي عليه السلام أن يحقّق كلّ ما كان يصبو إليه، وقبل أن يموت في منتصف رجب سنة ستين من الهجرة سلم الملك لولده يزيد، ولمّا جاء يزيد استلم دولة مشت خطوات في تغيير المسار المحمّدي البنّاء، وأخطر ما حدث فيها من انهيارات في الجسد الإسلاميّ كان بسبب الحرب الناعمة التي شنّها معاوية على الأخلاق الإسلاميّة التي كان يراها عثرة في وجه مخططه، وإذا كان معاوية قد استخدم الحرب الناعمة للوصول إلى ما يريد، فإنّ ابنه قد

١. ابن أبي الحديد: ١/ ٢٣٧.

شعر أنّه تولى دولةً خاصّةً خانعةً خاضعةً، وأنّه قادرٌ أن يتجاوز النعومة؛ ليظهر وجهه الحقيقيّ بلا خشية ولا خوفٍ من أحد إلّا ما كان يحسّه من رهبةٍ غير طبيعيّة من الحسين بالذات وبعده ابن الزبير، فكان أوّل ما قام به تأكيده على والي المدينة أن يأخذ بيعة الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، فكانت انطلاقة الثورة الفكريّة الأخلاقيّة ونهضتها التي قام بها الحسين، فأعادت للإسلام ألقه إلى اليوم، وكانت المثل الأعلى في نهضة الشعوب المظلومة وتحررها، ومازال شعار الحسين «هيهات منّا الذلة» يصدح على لسان طالبي الحرية في العالم كله بكل أطيافه ودياناته.

انطلاقة الثورة الحسينيّة

التزم الحسين بعهد أخيه الحسن في الصلح مع معاوية، وهذا الالتزام كان يمثّل الأخلاق الحسينيّة الفوقيّة، رغم ما كان يعانيه من أعمال معاوية الذي لم يكن يفعل الصواب أو الأفضل للمسلمين، وهنا مفرق طريق، إمّا أنّه لم يكن يفعل الصواب لجهله به، وإمّا أنّه كان يعلمه كما أقرّه النبي وتجاهله بفوقيّة مقصودة وهذا الصواب الذي تجاهله معاوية عن قصد كان يمثّل المعرفة الفكريّة الإماميّة البناءة التي جاء بها النبيّ محمّد، وتجاهله للمثل المعرفيّة الفكريّة السلبيّة المقصودة، في محاولة السلطان والقوّة إلى تحويل الخير إلى شرّ، وتحويل معرفة الرسالة الإسلاميّة إلى معرفة بشريّة.

ولما برر الحسين أسباب خروجه بعودة الناس إلى دين جدّه كان يقول الحقيقة ملتزمًا بنهضة فكريّة أخلاقيّة من أجل دين جدّه، ديننا الإسلاميّ العظيم وقد كان ذلك على حساب المخاطر الشخصيّة والعائليّة الحسينيّة! فهل أدرك المسلمون المعاصرون عظمة هذه النهضة الفكريّة الحسينيّة الصالحة لكلّ زمان ومكان؟ إنّها كذلك وإنّها دائمًا تحتاج إلى أجسادٍ حسينيّة، هذه التي تقف في الخط المقاوم والتي لما ترتفع بعد إلى الجسد الحسيني لكنّها مستعدّة دائمًا.

لا بدّ من التأكيد - من وجهة نظري - أنّنا مهما حاولنا معرفة التفصيلات

والتفريعات التي لا تعدّ ولا تحصى تلك التي قام بها يزيد بإبعاده الناس عن دين جدّ الحسين لما عرفناها كما عرفها الحسين الذي كان يعايشها ليلًا نهارًا، فولدت لديه طاقة إيجابيّة خاصّة لا توصف ولا تعرّف إلّا بالطاقة الحسينيّة التي ما زالت تغذّي كل أحرار العالم ليثوروا على الظالمين في الآفاق، ولا شكّ كذلك أنّها كانت زاد ذلك «اليتيم الذي جاء يغير مجرى التاريخ، الإمام الخميني طيّب الله ثراه».[١]

ومن جهةٍ أخرى مهمّة جدًّا؛ فإنّ علم الأخلاق لم يولد في اليونان في لحظة استيلاء العقل على أزمة الحياة الإنسانيّة، وقد كانت بيد الدين، وأنّ سقراط ما هو المؤسس الحقيقيّ لهذا العلم.[٢] إنّه علم تتجدّد ولادته في كلّ الشعوب والأمم، كلّما شاخ وتغيّرت ملامحه فيبعث الله له من يجدّده ويتمّه، فإذا سارع أعداء هذا العلم وسعوا إلى فساده بشكلٍ مقصود مدفوع بدوافع شيطانيّة أرسل الله لها حسينًا من عصرها يقوم بنهضتها من جديد، وكما كان الإسلام خاتمة الديانات، كان الحسين صاحب ما قاله الرسول في الحسين في الحديث الصحيح جدًّا يؤكّد أنّه بضعة منه؛ لقولهﷺ في فاطمة عليها سلام الله: «إنّ فاطمة بضعة مني»؛[٣] ولهذا كان يقول: «حسينٌ منّي وأنا من حسين، أحبّ الله من أحب حسينًا، حسين سبط من الأسباط».[٤]

هذا الحسين العظيم كان يرى ما فعله معاوية من خروج كبير عن نهج جده محمد صاحب رسالة الإسلام، وكان ينتظر الفرصة؛ ليكون بحل من عهد أخيه الحسن إلى أن مات معاوية في منتصف رجب سنة ستين هجرية، وقد جاءت تأكيدات للنبي محمّدﷺ أنّ حفيده الحسينعليه السلام سيقتل في شطّ الفرات، على يد ظلمة لكن تلك التأكيدات لم تعيّن الزمن الذي سيقتل فيه الحسينعليه السلام شهيدًا ينال أعلى مرتبة إلهيّة في هذه الشهادة؛

١. مير مصطفى: : ٥٣ ـ ٨١ ـ ١٢٩.
٢. الشرقاوي: /١٣.
٣. مسلم: ٤/ ٤١ و٣٢٨.
٤. حديث صحيح رواه الترمذي، وأحمد في مسنده، وابن ماجة وغيرهم.

لأنّه سيعيد دين جدّه من جديد بعد أن عمل معاوية ويزيد على طمسه، وجزاء الله على ذلك كان عظيمًا رغم الألم والمآسي والأحزان التي ستكون في طريق الحسين الذي سلكه لإعادة دين جدّه، لكنّها آلام ومآسٍ بمنظار بشري، وطريق مفروش بالدماء الطاهرة من سيّد العترة الطاهرة في عصره، امتدّ تأثيره إلى العصر الحديث جدًّا، وسيبقى إلى أن يظهر حفيده المهدي.

لقد كانت العظمة التي لا تدركها الأقلام في النهضة الفكريّة الثوريّة التي قادها الحسين عليه السلام عن طريق اتّخاذ الأخلاق وسيلة عظيمة وقودًا دائمًا من دمه عبر العصور منعت الذلة عن دين محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله؛ فكانت نهضة فكريّة أخلاقيّة زرعت في قلوب البشريّة جمعاء من لحظات الطف يوم تناثرت الدماء، وأمطرت السماء الدماء إلى الآن وقودًا عاطفيًّا حزينًا حرّك مجتمع الخنوع والانسياق وراء الظالم الأموي، وما زال وسيبقى، وهذا ما أشار إليه الزعيم الهندي "غاندي" في أسلوبه اتّخاذ النهضة الفكريّة الأخلاقيّة الحسينيّة طريقًا إلى تحرير الهند من الظلم البريطاني الأموي!

نعم، ولا غرابة فكما صارت ثورة الحسين عليه السلام الفكريّة بوقودها النووي المتمثّل بالدم الطاهر شعارًا لكلّ المظلومين في الأرض، صار الظلم الأمويّ صورة عن كلّ المستعمرين الأول الحسيني الطاهر تمثّله الثورة الإسلاميّة الخمينيّة الخامنئيّة في إيران الإسلام والثاني الأموي النجس يمثّله الوجود الصهيوني في فلسطين، وأتْباعهم الخونة من المطيعين.

هذا البحث المختزل جدًّا عن ثورة الحسين عليه السلام التي قام بها، قد يلقي في جانب منه، الضوء على عواطف الحزن الجياشة والدموع التي لا تنضب عند المسلمين على مقتل الحسين عليه السلام بطريقة مؤلمة منذ استشهاده حتّى الآن وستبقى دائمًا طريقًا لنهضة فكريّة أخلاقيّة يولد من رحمها ثورات تغيّر مجرى التاريخ إن هي فهمت، وهذا ما فعله الإمام الخميني قدس سره حين دخل بفكره إلى أعماق المفهوم الثوريّ النهضويّ الأخلاقيّ الحسينيّ،

وخرج منه بثورةٍ فكريّة سياسيّة اجتماعيّة حسينيّة كان طيفها عموديًّا وأفقيًّا في العالمين الإسلاميّ والعربيّ وما كان الفكر الثوريّ السياسيّ والاجتماعيّ ليكون في عمق التاريخ وعرضه إلى المعاصرة لولا تلك النهضة الفكريّة الثوريّة الأخلاقيّة الحسينيّة التي جاءت بقوّة جبّارة حركة المجتمعات الراكدة منذ ذلك التاريخ إلى الآن.

ويبقى السرّ الحسينيّ في تحريك تلك المجتمعات الراكدة من خلال دموع الحزانى على الحسين عليه السلام، ولطمات الخدود في كلّ عام، تبقى وقودًا ثوريًّا أخلاقيًّا تحت مرجل الفكر يحرّكه ويضع فيه البنى الفكريّة التي يتولّد عنها أشكالٌ متعدّدة من السلوك، وهنا مكمن النهضة الفكريّة الحسينيّة الأخلاقيّة التي تلد الأنماط الثوريّة المتعدّدة بسلوكيّات فكريّة تلائم كلّ مكان وزمان؛ وهذا يحتّم على المسلمين في كلّ ذكرى لاستشهاد الحسين عليه السلام التجديد في كلّ مظاهر الحياة، وأكثر ما تحتاجه الأمّة الآن العلم ومعاهده بمختلف الأنواع لتظل الشعلة الفكريّة الحسينيّة متّقدة.

الدستور الأخلاقي لخروج الحسين

«إنّي لم أخرج أشرًا ولا بطرًا ولا مفسدًا ولا ظالمًا، وإنّما خرجت لطلب النجاح والصلاح في أمّة جدّي؛ أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدي محمد».[1]

إنّ ثورة الحسين ثورة أخلاقيّة يجب إحياؤها، من خلال ما نشرته شبكة النبأ المعلوماتية ملف عاشوراء ١١٢٧هـ:

ـ قال المستشرق الأثري الإنكليزي وليم لوفتس:

لقد قدّم الحسين بن علي أبلغ شهادة في تاريخ الإنسانيّة، وارتفع بمأساته إلى مستوى البطولة الفذّة.

ـ قال المستشرق الألماني ماربين:

١. العسكري: ٥٠/٣.

قدّم الحسين للعالم درسًا في التضحية والفداء من خلال التضحية بأعزّ الناس لديه ومن خلال إثبات مظلوميّته وأحقيّته، وأدخل الإسلام والمسلمين إلى سجّل التاريخ ورفع صيتهما؛ لقد أثبت هذا الجندي الباسل في العالم الإسلامي لجميع البشر أنّ الظلم والجور لا دوام له، وأنّ صرح الظلم مهما بدا راسخًا وهائلًا في الظاهر إلّا أنّه لا يعدو أن يكون أمام الحقّ والحقيقة إلا كريشة في مهب الريح.

ـ قال الزعيم الهندي غاندي:

لقد طالعت بدقّة حياة الإمام الحسين، شهيد الإسلام الكبير، ودقّقت لأنظر في صفحات كربلاء، واتّضح لي أنّ الهند إذا أرادت إحراز النصر، فلا بدّ لها من اقتفاء سيرة الحسين.

وقال أيضًا:

تعلّمت من الحسين كيف أكون مظلومًا فأنتصر.

وخاطب الهند قائلًا: «على الهند إذا أرادت أن تنتصر، فعليها أن تقتدي بالإمام الحسين»، فقد رآه "غاندي" قدوة في الأخلاق الإنسانيّة العامّة، وكان يردد: «تعلّمت من الحسين كيف أكون مظلومًا فأنتصر».

دستور الثورة الحسينيّة كان أخلاقيًّا، في كلّ موادّه راعى حرمة الزمان، كما رأينا في انتظاره حتّى موت معاوية. ويمكن النظر في أهمّ موادّ دستور الثورة الفكريّة الأخلاقيّة الحسينيّة:

١ ـ مراعاة حرمة الكعبة والابتعاد عنها في ثورته؛ كي لا تستباح كما في قوله لأخيه محمد بن الحنفية:

يا أخي، خفت أن يغتالني يزيد بن معاوية بالحرم، فأكون الذي يستباح به حرمة هذا البيت.[1]

وهذا ما دفعه أن يقول لعبد الله بن الزبير:

يا بن الزبير؛ لأنّ أدفن بشاطئ الفرات أحبّ إليّ من أن أدفن بفناء الكعبة.[2]

٢ ـ حفظه عليه السلام العهد والوفاء به.

١. المجلسي: ٤٤/ ٣٦٤.

٢. المصدر نفسه: ٤٥/ ٨٦.

لا شكّ أنّ الوفاء بالعهد والوفاء به ثقافة قرآنيّة تعلّمنا الامتثال لهذه القيمة الأخلاقيّة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مسؤولًا﴾، وقال: أوفوا بالعهود...

وهذه قيمة فرضتها السماء على بني البشر؛ ليعيشوا بأمان، وقد كانت خصلة محمّديّة أخذها الحسين عليه السلام من جدّه وأبيه.

وقد تمسّك بها الحسين عليه السلام في أشدّ المواقف خطورة؛ فإنّه:

بعد اتّفاقه مع الحر بن يزيد الرياحي على أن يسايره، فلا يعود إلى المدينة، ولا يدخل الكوفة، طلب منه الطرماح بن عدي أن ينزل قبيلة طي ليلتحق به عشرون ألف طائي، فقال له الحسين عليه السلام: "إنّه كان بيننا وبين هؤلاء القوم قول لسنا نقدر معه على الانصراف".[1]

٣ ـ رحمته على أعدائه؛ لأنّه إنّما يقاتلهم ليعيدهم إلى الحقّ الذي شردوا منه، فيسبغ عليهم رحمته وشفقته، وقد تجسّد هذا في لقائه ألف مقاتل من جيش ابن زياد، وكانوا عطشى وخيولهم، فأمر أتباعه بسقي الجيش، وقال: «اسقوا القوم، وأرووهم من الماء، ورشّفوا الخيل ترشيفًا» وقام هو بنفسه، فسقى ابن طعان المحاربي.[2]

ومع ذلك، فإنّه حين وصل جيش ابن سعد إلى الماء، وحازوا عليه، فإنّهم منعوا الماء عن الحسين عليه السلام حصرًا هو وأولاده حتّى الرضيع منهم حين غرف له أبوه عليه السلام حسوة ماء رموه بسهم، فقطعوا حنجرته، وتطاير دمه إلى السماء، فبكته زخّات من المطر الدموي، وفي قولهم من منع الحسين، فإنّه «قبل المعركة وصل بربر ومعه جماعة إلى النهر، فقال لهم حماته: اشربوا هنيئًا مريئًا بشرط ألا يحمل أحدكم قطرةً من الماء للحسين، فقالوا لهم: ويلكم نشرب الماء هنيئًا والحسين وبنات رسول الله يموتون عطشًا، لا كان ذلك أبدًا».

٤ ـ ومن عظيم أخلاقه عليه السلام عطفه على عمر بن جنادة ومنعه من القتال بعد استشهاد

١. ابن الأثير: ٤/٥٠.
٢. المفيد: ٢/ ٧٨.

أبيه مراعاة لشعور أمّه وعطفًا عليها، ولم يسمح له بالعودة إلى القتال إلّا بعد أن علم أنّ أمّه هي التي أرسلته إلى المعركة، وقد كان ابن أحد عشر عامًا، وكان قد أرجع أمه بعد أن إصابة رجليها عطفًا على ابنها.[١]

٥ ـ الخطاب الأخلاقيّ الحسينيّ الخاصّ جدًّا، وقد تمثّل في كلماته التي كان يخاطب بها من معه من أفراد عائلته وأتباعه الذين كانت تهون الدنيا عليهم، فيندفعون إلى المعركة بين يديه وهم يسمعونه، يقول: «صبرًا بني الكرام، فما الموت إلّا قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضراء إلى الجنان الواسعة»،[٢] مثل هذا الكلام الأخلاقي كّان يولد لديهم حالة من السموّ النفسي الساعي إلى التخلّص من البؤس والضرّاء، فقد كان عليه السلام مثالًا لجميع الفضائل ومكارم الأخلاق، وكان «عليه السلام من أعبد الناس وأزهدهم، وانبعث صوته بالفتح العظيم، فاستوعب صداه جميع أنحاء العالم الإسلاميّ، وهو ينادي بفجرٍ جديدٍ ويومٍ جديدٍ؛ ليستأنف فيه الإنسان المسلم رسالته، ويبدأ تاريخه ويبني كرامته، ويعدل سلوكه، وينفض عنه غبار الذلّ وعار العبوديّة، وينطلق في ميادين التحرّر؛ ليساهم في بناء الحضارة، ويدخل موكب التاريخ».

٦ ـ من أخلاقه العظيمة مساواته نفسه بكلّ أتباعه وجعله من نفسه قدوة لهم، فكان يقول عليه السلام لهم: «نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم، فلكم فيّ أسوة حسنة».[٣]

٧ ـ ومن أعظم الشيم والأخلاق الحسينيّة عفوه عمّن تاب بعد أن غدر من الذين وقفوا مع أعدائه، ثمّ عادوا إليه يطلبون العفو والرحمة والدعاء لهم.

هذه وغيرها من الموادّ الدستوريّة التي جاءت في ثورة الحسين الفكريّة الأخلاقيّة ممّا ذكره كلّ من تطرّق إلى ثورة الحسين الفكريّة بثوبها الأخلاقيّ.

١. الطبري: ٤/ ٣٠٤.
٢. شريف القرشي: ٣/ ١٩٩.
٣. ابن الأثير: ٤/ ٤٨.

علينا أن نحسن العرض ونحن نتحدّث عن هذه الثورة، فلا نسبّ أو نشتم أصنام الذين ما وفّقوا لمركب الحسين عليه السلام في بحر إيمانه، وظلّوا عن شاطئ العذاب، لا يدرون معنى أن تكون من أتباع الحسين عليه السلام.

موجبات أخلاقيّة في ثورة الإمام الحسين عليه السلام

إنّه بموجب اتّفاق الصلح الذي تمّ بين الإمام الحسين عليه السلام ومعاوية أن تعود الخلافة إلى الإمام الحسن عليه السلام بعد موت معاوية، لكن هذا الأخير تخلّص من الحسن عليه السلام بالسم، وحكم البلاد وجزءًا من العباد، وشجعه المغيرة بن شعبة على وضع ابنه يزيد خليفة له مقابل أن يتركه واليًا على الكوفة والبصرة.

وصار يزيد بن معاوية خليفة بعد أبيه، فكيف كانت سيرته؟

يجيب على هذا السؤال جمّ من العلماء والفقهاء والمؤرخين من كلّ المدارس الإسلاميّة، لكن من الأسلم أن ينظر إلى يزيد وسيرته بعين كبار أهل السنّة، ولا بأس أن نبدأ بابن حنبل، فإنّه قد سمع إلى ابنه صالح يقول له:

> **إنّ قومًا ينسبوننا إلى تولي يزيد! فقال: يا بنيّ وهل يتولّى يزيد أحد يؤمن بالله، ولِمَ لا يُلعن من لعنه الله في كتابه؟! فقلت: في أيّ آية؟ قال: في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾.[1] فهل يكون فساد أعظم من القتل؟![2]**
>
> **وقال عنه الذهبي: "وكان ناصبيًّا، فظًّا غليظًا، جلفًا يتناول المسكر، ويفعل المنكر، افتتح دولته بمقتل الشهيد الحسين، واختتمها بواقعة الحرّة، فمقته الناس، ولم يبارك في عمره، وخرج عليه غير واحد بعد الحسين.[3]**

أمّا الآلوسي في تفسيره، فيقول:

> **والذي يغلب على ظني أنّ الخبيث لم يكن مصدقًا برسالة النبيّ وأهل حرمه نبيّه صلى الله عليه وآله**

١. محمد: ٢٢.

٢. ابن الأثير: ٣/ ٤٥٠.

٣. انظر: ميزان الاعتدال، وسير أعلام النبلاء: ٣/٤٢٤.

وعترته الطيبين الطاهرين في الحياة وبعد الممات وما صدر عنه من المخازي ليس بأضعف دلالة على عدم تصديقه من إلقاء ورقة من المصحف الشريف في قذر! ولا أظنّ أن أمره كان خافيًا على أجلّة المسلمين إذ ذاك، ولكنّهم كانوا مغلوبين مقهورين، لم يسعهم إلّا الصبر؛ ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا...[1]

وبحديثنا عمّا قاله الآلوسي في يزيد متجاوزين موضوعه في جواز إن لم يكن وجوب لعنه، نكون قد تخطينا ما كتبه ابن الجوزي في بحثه "الردّ على المتعصب العنيد المانع من ذمّ يزيد"، وهذا من أشهر كتب ابن الجوزي، وهو في الردّ على عبد المغيث الحنبلي الذي كان يتولّى نصرة يزيد بن معاوية.

وقد تجاوزنا إلى الآلوسي؛ لأنّه لخّص في تفسيره "*روح المعاني*" ما قيل في يزيد؛ وهذا يدفعنا أن نقف على موجبات ثورة الحسين عليه السلام التي تناولها عشرات إن لم نقل مئات الكتّاب قديمًا وحديثًا لكنّنا هنا أحببنا أن ننظر إليها من المنظار الأخلاقيّ، فيزيد قد أبعد كلّ مكارم الأخلاق التي بعث النبيّ صلى الله عليه وآله لإتمامها من خلال نشر رسالة الإسلام بما حمله من قيم أساسيّة زرعها في المجتمع الأوّل فحملت معها نصر الله، وحملت معها الفتح لكن الطلقاء الذين كانوا يحاربون الإسلام وقيمه بخطوات رصينة متتابعة، الخطوة الأولى حمل معولها أبو سفيان ضدّ رسول الله صلى الله عليه وآله. والخطوة الثانية حملها ابنه معاوية ضدّ أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام، وقد حاول جاهدًا تشويه أركان الإسلام، فكان الإمام علي عليه السلام يتصدّى له بمختلف أشكال التصدّي، ولما جاء يزيد عمل على هدم الأسس الأخلاقيّة التي ثبتها رسول الله صلى الله عليه وآله دعائم كبرى يقوم عليها المجتمع الإسلاميّ، وقد ساعده في هذا ما قام به أبوه معاوية من تغييرات وتلاعب بالذمم الضعيفة وشرائها بالدرهم والدينار إلى أن جاء يزيد فتمثّل هو شخصيًّا بكلّ منكر ينسف قيمًا وعاش على هدم ما وصلت إليه يده من معاول لهدم كلّ الأخلاق ومكارمها، وزرع الأخلاق

١. الآلوسي: ٢٦/٧٣.

السيئة بدلًا منها وتتويج أعماله بالرذائل؛ وهذا ما خلخل المجتمع وزعزع الأركان والأسس التي قامت على الأخلاق، وهذا ما أدركه الحسين عليه السلام في الحجاز والشام، فكان لا بدّ أن يقاوم هذا المدّ من الأخلاق السيئة، وأراذلها التي بدأ يمثّلها ملك الناس والناس - كما نعلم - على دين ملوكها، فكانت قومته عاصفة أخلاقيّة جبارة، لا تقوم بها جيوش، ولا تقدر عليها سيوف ولا أسنّة، وما دامت قومة بهذا الشكل، فقد صار عسيفها يسمع ويدوي للعودة بالناس إلى دين جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله، كان لا بدّ لها من تضحياتٍ جبّارة، تضحيات بأنفسٍ عظيمة لتعود الأمّة إلى دين محمد صلى الله عليه وآله، ومن أعظم من الحسين عليه السلام؟! لا أعظم، ولا أقدر على القيام بهذا الهدف إلّا الحسين عليه السلام، وبأسلوبٍ أخلاقيّ عظيمٍ جعل الدم ينتصر على السيف، وجعله قدوة لكلّ المظلومين في العالم الساعين إلى التحرير والخلاص من الفسق والانحلال.

وقد أدلى الإمام الحسين عليه السلام بتصريحٍ قبل خروجه بيّن فيه الأسباب والدوافع وراء خروجه، فقال:

إنّي لم أخرج أشرًا ولا بطرًا، ولا مفسدًا، ولا ظالمًا، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدّي وأبي علي بن أبي طالب، فمن قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بقبول الحقّ.[1]

لقد أدرك الحسين عليه السلام أنّ حربًا ناعمة تشن على الإسلام وآل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد ظهرت أيام معاوية، وها هي تتجسّد بشكلٍ قويٍّ أيّام يزيد.

وقد ذكر التاريخ:

أنّ معاوية مرّ بحلقة من قريش، فلما رأوه قاموا غير عبد الله بن عباس. فقال له: يا بن عباس ما منعك من القيام كما قام أصحابك إلّا لموجودة أنّي قاتلتكم بصفين، فلا تجد من ذلك يا بن عباس، فإن ابن عمك عثمان قد قتل مظلومًا.
قال ابن عباس: فعمر بن الخطاب قد قتل مظلومًا! قال: إنّ عمر قتله كافر، قال ابن

١. الأعثم الكوفي: ٣٢.

عباس: فمن قتل عثمان؟ قال: قتله المسلمون. قال: فذلك أدحض لحجتك. قال: فإنّا قد كتبنا في الآفاق ننهى عن ذكر مناقب علي وأهل بيته، فكف لسانك.
فقال: يا معاوية أتنهانا عن قراءة القرآن؟
قال: لا.
قال: أتنهانا من تأويله؟
قال: نعم.
قال: فنقرؤه ولا نسأل عمّا عنى الله به! ثمّ قال: فأيّهما أوجب علينا قراءته أو العمل به؟
قال: العمل به.
قال: فكيف نعمل به ولا نعلم ما عنى الله؟
قال: سل عن ذلك من يتأوّله غير ما تتأوّله أنت وأهل بيتك.
قال: إنّما أنزل القرآن على أهل بيتي، فأسأل عنه آل أبي سفيان يا معاوية! أتنهانا أن نعبد الله بالقرآن بما فيه من حلالٍ وحرامٍ؟ فإن لم تسأل الأمةُ عن ذلك حتى تعلم تهلك وتختلف.
قال: اقرؤوا القرآن وتأوّلوه، ولا تروا شيئًا ممّا أنزل الله فيكم، وارووا ما سوى ذلك.
قال: فإنّ الله يقول في القرآن: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.[1]
قال: يا بن عباس، أربع على نفسك، وكف لسانك، وإن كنت لا بدّ فاعلًا فليكن ذلك سرًّا لا يسمعه أحدٌ علانيةً.
ثمّ رجع إلى بيته، فبعث إليه بمئة ألف درهم، ونادى منادي معاوية أن قد برئت الذمة ممّن يروي حديثًا من مناقب علي وفضل أهل بيته، وكان أشدّ الناس بليّة أهل الكوفة؛ لكثرة من بها من الشيعة، فاستعمل زياد بن أبيه وضمّ إليه العراقيين: الكوفة والبصرة، فجعل يتتبع الشيعة وهو بهم عارف، يقتلهم تحت كلّ حجر ومدر، وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل، وصلبهم في جذوع النخل، وسمل أعينهم، وطردهم وشرّدهم، حتى نفوا عن العراق، فلم يبق أحد معروف مشهور، فهم بين مقتول أو مصلوب، أو محبوس، أو طريد، أو شريد.[2]

فلنلاحظ أقوال معاوية ردًّا على كلام ابن عباس، إنّها الحرب الناعمة أعلنها معاوية بعد الحرب الخشنة التي قادها ضدّ الإمام علي عليه السلام، وقد عرفها كلّ الصحابة، فمنهم من قام مع الحسين عليه السلام في ثورته ومنهم من ظلّ ساكنًا خشية السيف الذي لم يكن يرحم.

١. التوبة: ٩.
٢. الطبرسي: ٢/٢٩٤.

فكانت ثورة الحسين عليه السلام ضدّ الحرب الناعمة التي شنّها معاوية وابنه يزيد على الإسلام، وكان الدم قد أفلح مع السيف. حرب قامت باللطف ظاهرة خشنة قام بها يزيد بأداته عبيد الله بن زياد وأداته عمر بن سعد وأدواته الذين تهيّؤوا وخرجوا لقتال الحسين.

بالمقابل، فإنّ الرسول صلى الله عليه وآله كان يعلم بمقتل الحسين، كما في الحديث:

عن أبي الطفيل، قال: استأذن ملك الفطر أن يسلم على النبي صلى الله عليه وآله في بيت أمّ سلمة، فقال: لا يدخلنّ علينا أحدٌ، فجاء الحسين بن علي عليه السلام، فدخل، فقالت أم سلمة: هو الحسين، فقال النبي صلى الله عليه وآله: دعيه، فجعل يعلو رقبة النبيّ صلى الله عليه وآله، ويعبث بها والملك ينظر، فقال الملك: أتحبّه يا محمّد؟ قال: إي والله إنّي لأحبّه. قال: أمّا إنّ أمّتك ستقتله، وإن شئت أريتك المكان؟ فقال بيده، فتناول كفًّا من ترابٍ، فأخذت أمّ سلمة التراب فصرته في خمارها، فكانوا يرون ذلك التراب من كربلاء.[1]

وعن أمّ سلمة – رضي الله عنها – قالت:

رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله – تعني في المنام – وعلى رأسه ولحيته التراب. فقلت: مالك يا رسول الله؟ قال: شهدت مقتل الحسين آنفًا.[2]

إذًا، فهي الثورة المرسومة المكتوبة منذ أن نزل الإسلام على متمّم مكارم الأخلاق، قائدها معلومٌ للنبي صلى الله عليه وآله، هو قطعة منه، يقودها بعلم النبي صلى الله عليه وآله، بعد وفاته، وتراه أم سلمة في المنام والتراب على رأسه ولحيته، وتسأله عما أصابه، فيعلمها أنّه شهد مقتل الحسين آنفًا!

إنّها ثورة أخلاقيّة عظيمة تمثّلت قول النبي صلى الله عليه وآله للإمام علي عليه السلام: «يا علي، ثلاث من مكارم الأخلاق: تصل من قطعك، وتعطي من منعك، وتعفو عمّن ظلمك».

فجاء الحسين عليه السلام يقود ثورةً أخلاقيّةً بفكر مسامح ضدّ الذين شنّوا حربًا ناعمة على الإسلام، خشنة على آل بيته عليهم السلام، وأمروا بني هاشم بقراءة ما جاء بحقّكم في القرآن أن يتلى سرًّا لا يسمعه أحد علانيةً!

١. الهيثمي، حديث رقم ١٥١٦٣.
٢. الترمذي، حديث رقم ٣٨٦٠.

فكان الجواب ثورة فكريّة أخلاقيّة سمع صداها أهل الأرض قديمًا وحديثًا رغم ما حلّ بهم من قتلٍ وصلبٍ وحبسٍ وطردٍ وتشريدٍ، فهل عرفت الأرض مذ كانت الأرض ثورة أعظم من ثورة الحسين؟

نتيجة البحث

كان معاوية – وفقًا للأدلّة التاريخيّة الموثّقة – يؤمن أنّه لا أخلاق في حكم الناس، وخيرُ شاهد على ذلك سلوكه مع الناس من صديقٍ وعدوٍّ، لا سيّما في حربه مع الإمام عليعليه السلام واغتيال أصحابه. وبعد استشهاد أمير المؤمنينعليه السلام وصلحه مع الإمام الحسنعليه السلام، خلت الساحة الفكريّة لمعاوية كما كلّ الساحات، لكنّ الساحة الفكريّة التي كان يستخدم فيها حربه الناعمة ليصل إلى ما يريده وهو أبعد من السلطة، سعيه الدائم في تشويه المعايير الأخلاقيّة الإسلاميّة، ولا شكّ أنّه نجح في كثير ممّا رمى إليه. وقد التزم الحسينعليه السلام بعهد أخيه الحسنعليه السلام في الصلح مع معاوية، وهذا الالتزام كان يمثّل الأخلاق الحسينيّة الفوقيّة، رغم ما كان يعانيه من أعمال معاوية إلى أن مات، فكانت نهضة عاشوراء هي في الواقع قيام ضدّ الحرب الناعمة التي شنّها معاوية أوّلًا وابنه يزيد ثانيًا على الإسلام، وكان الدم قد أفلح مع السيف، فكانت هي نهضة فكريّة أخلاقيّة زرعت في قلوب البشريّة جمعاء من لحظات الطفّ يوم تناثرت الدماء، وأمطرت السماء الدماء إلى الآن وقودًا عاطفيًّا حزينًا حرّك مجتمع الخنوع والانسياق وراء الظالم الأموي، وما زال وسيبقى.

مصادر البحث

القرآن الكريم
نهج البلاغة، شرح ابن أبي الحديد
١. ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن، الكامل في التاريخ، بيروت، دار الكتاب العربي، تحقيق عبد السلام تدمري، لا تاريخ.
٢. ابن حنبل، أحمد أبو عبد الله الشيباني، مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة، القاهرة، لا تاريخ.
٣. ابن شعبة الحراني، أبو محمد الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول، طهران، دار الكتب الإسلاميّة، ١٣٧٦ ش.
٤. ابن عساكر، تاريخ دمشق، دارالفكر، بيروت،الطبعة الأولى، ١٤١٨ق.
٥. ابن كثير الدمشقي، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي (٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، ناشر: مكتبة المعارف، بيروت.
٦. ابن ماجه، محمد بن يزيد، السنن المصطفى، تصحيح: محمد فؤاد الباقي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، قاهره، لا تاريخ.
٧. ابن منظور، محمّد بن مكرم، لسان العرب؛ بيروت، دار التراث العربي، ١٤٠٨ق.
٨. أحمد، بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، ناشر: مؤسسة قرطبة، مصر، لا تاريخ.
٩. الأعثم الكوفي، أبو محمد أحمد بن أعثم، مقتل الحسين، مطبعة أنوار الهدى، ١٤٢١هـ
١٠. الآلوسي، شهاب الدين محمود (ت١٢٧٠هـ)، روح المعاني، طبع مؤسسة الرسالة، دمشق.
١١. البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي، صحيح البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ق.
١٢. البغوي، أبو محمد حسين بن مسعود، (م ٥١٦ هـ)، شرح السنة، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وزهير شاويش، مؤسسة الرسالة (المكتب الإسلامي) ١٦ مجلدًا، بيروت ١٤٠٣ق.
١٣. الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لا تاريخ.
١٤. العسكري، السيد مرتضى، معالم المدرستين، الطبعة الخامسة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٤١٤ق.
١٥. السجستاني، سليمان بن الأشعث أبو داود الأزدي، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، لا تاريخ.

١٦. الشرقاوي، محمد عبد الله، الفكر الأخلاقي، بيروت دار الجبل، مكتبة الزهراء بحرم جامعة القاهرة، ١٤١٠ق.
١٧. شريف القرشي باقر حياة الإمام الحسين، في ثلاثة أجزاء، تحقيق: مهدي باقر القرشي، بيروت، دار الكتب العلميّة.
١٨. الطبرسي، أحمد بن علي (ت٥٨٨ ق)، الاحتجاج على أهل اللجاج، مشهد، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ق
١٩. الطبري، محمد بن جرير(ت٣١٠ ق)، تاريخ الطبري، بيروت دار الكتب العلميّة، لا تاريخ.
٢٠. الغزالي، محمد بن محمد أبو حامد (ت ٥٠٥ ق)، إحياء علوم الدين، بيروت، دار المعرفة.
٢١. القزويني، محمد بن يزيد أبو عبد الله، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.
٢٢. الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، منشورات الفجر، بيروت.
٢٣. الليثي الواسطي، علي بن محمد، تحسين حسين الحسني عيون الحكم والمواعظ، دار الحديث.
٢٤. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، بيروت؛ دار إحياء التراث العربي، لا تاريخ.
٢٥. المغربي، القاضي نعمان بن محمد بن منصور بن حيون (ت٣١٣هـ)، المناقب والمثالب: ذكر مناقب بني هاشم ومثالب بني أمية، طبع بيروت، شركة الأعلمي للمطبوعات.
٢٦. المفيد، أبو عبد الله محمد بن محمد، الإرشاد، بيروت، دار المفيد، ١٤١٤ق.
٢٧. مير مصطفى، تامر، يتيم يغير مجرى التاريخ، عناية المستشارية الثقافية الإيرانيّة، دمشق ٢٠١٣م.
٢٨. النيسابوري، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري، صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٩. الهيثمي، أبو العباس أحمد بن محمد بن علي ابن حجر (٩٧٣هـ)، الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة، تحقيق عبد الرحمن بن عبد الله التركي - كامل محمد الخراط، ناشر: مؤسسة الرسالة، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧ق.
٣٠. الهيثمي، علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد، دار الريان للتراث، دار الكتاب العربي، القاهرة، بيروت، ١٤٠٧هـ